الباب الرابع

ما وراء الستار

الفصل الثالث والثلاثون

حياة الناس

١٥١٧ – ١٥٦٤

---

١ – الاقتصاد

إن مسرحية الصراع الدينى والسياسى والحربى الذى ملأ جبهة القرن السادس عشر ، كانت من بعض النواحى سطحية . ذلك أنها لم تظهر إلا انطلاقاً من مسرحية أعمق ، مثلت خلف مشاهد التاريخ أو تحت المسرح الفخم — أعنى معركة الإنسان اليومية الأبدية مع التربة والعناصر (الماء والهواء والتراب والنار) والفقر والموت . وماذا كانت ، فوق كل شىء هبات ومراسيم البابوات والبروتستانت ، والسخافات المتزاحمة فى الأساطير القتالة ، وزهو الملوك والأباطرة وتعاقبهم ، وما كان ينتابهم من أمراض مثل النقرس والزهرى ، إذا قورن كل أولئك بالكفاح المرير من أجل الغذاء والمأوى والكساء والصحة والزوجة والولد والحياة ؟

إن قرى أوربا فى تلك الحقبة ، كان لا بد لها ليلا ونهاراً أن تحذر وتحترس من الذئاب والخنازير البرية ، أو أى خطر آخر يتهدد قطعانهم

ومساكنهم . لقد عمّرت مرحلة الصيد داخل عصر الزراعة ، وكان لزاماً على الإنسان أن يَقتل أو يُقتل ، ويسرت أسلحة الدفاع طريقة (روتين) الكدح والعمل . وكانت آلاف الحشرات ووحوش الغابة وطيور السماء تنافس الفلاح فى ثمار غرسه وكده ونصبه ، والأمراض الخفية تهلك القسم الأكبر من ماشيته . وربما أصبحت الأمطار سيولا جارفة أو فيضانات غامرة ، وربما انقطعت حتى تذبل الحياة كلها . وكان الجوع دائماً يتربص بالناس ، ولم يفارق الخوف من الحريق مخيلتهم قط . وكثيراً ما انتابتهم الأمراض ، والأطباء على مسافات بعيدة منهم : وفى كل عشر سنين تقريباً ربما اختطف الطاعون من الأسرة فرداً عزيزاً عليها أو له قيمته عند تعرض الأرض للخطر . وكان يموت فى سن الطفولة طفلان من بين كل خمسة أطفال ، ويموت ثالث قبل البلوغ(١) ، ومرة واحدة على الأقل فى كل جيل كان ضابط التجنيد يأخذ أحد الأبناء للجيش ، وكانت الجيوش تحرق القرى وتنهب الحقول ، وكان عشر المحصول بعد الحصاد يذهب إلى مالك الأرض ، وعشر ثان إلى الكنيسة . وكانت الحياة على الأرض تصبح جحيما لا يحتمله الجسم أو الروح ، لولا أن شيئاً من السعادة يتخلل ابتهاج الأطفال وألعاب المساء فى البيت ، وإطلاق الأغانى ولعب الخمر بالرءوس فى الحانات ، والأمل نصف المصدق ونصف المشكوك فيه حياة أخرى أكثر رحمة وشفقة . هكذا كان إنتاج الغذاء الذى أطعم البارونات فى الحصون والملوك فى قصورهم والكهنة فى محاريبهم ، والتجار والصناع فى المدن ، والأطباء والمعلمين والفنانين والشعراء ورجال العلم والفلاسفة ، وأخيراً ، وأقلهم شأناً ، رقيق الأرض أنفسهم . فالمدنية عالة على الإنسان الذى يحمل آلة العزق .

وكان علم الزراعة من خصائص هذا الزمان . ونشأ تقـــدم الإنتاجية أساساً من استبدال الملكية الكبيرة بالملكية الصغيرة . وأدخل مالكو الأرض

الجدد من التجار والرأسماليين إلى اليقاع الريفية الراكدة لهفة شـــديدة على الربح الذى زاد الإنتاج والبؤس كليهما معاً ؛ وأدخل المستوردون المغامرون إلى أوربا مخصباً أو سماداً جديداً غنياً بالفوسفات والنتروجين — وهو روث الطيور الذى يجتمع على شـــواطىء بيرو . وتأقلمت فى تربة أوربا نباتات وشجيرات من آسيا أو أمريكا ، مثل البطاطس وشجرة المغنولية (نبات جميل الزهر) ، والأغاف الأمريكى ، والفلفل والدهلية (زهر جميل) ، والكبوسين (أبو خنجر) . . . وأحضر التبغ من المكسيك إلى أسبانيا ١٥٥٨ . وبعد ذلك بسنة واحدة أرسل جان نيكوت السفير الفرنسى فى لشبونه بعض بذوره إلى كاترين دى مديتشى ، وقد جزى التاريخ هذا السفير خير الجزاء فأطلق اسمه على أحد السموم .

ونمت صناعة صيد السمك بازدياد السكان ، ولكن الإصلاح الدينى سدد ضربة قاضية إلى تجار السردين بإباحة اللحوم يوم الجمعة ، وتقدم التعدين بالتنظيم الرأسمالى . وكانت نيوكاسل تصدر الفحم فى ١٥٤٩ ، وضاعف أصحاب المناجم إنتاجها بحث العمال على بذل جهود أعظم وأكثر نظاماً ، وتحسين وسائل تنقية المعدن الخام . وفى هذه السطور ينقلنا جورج أجريكولا إلى منجم فى القرن السادس عشر :

إن أهم أنواع العمال هم المعدنون ، الجرافون ، الرافعون ، الحمالون ، الفرازون ، الغسالون ، الصاهرون . . . وكانت ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ، تنقسم إلى ثلاث نوبات كل منها سبع ساعات ، والساعات الثلاث الباقية تتوسط النوبات ، ليدخل العمال فى أثنائها إلى المنجم أو يغادروه . وتبدأ النوبة الأولى الساعة الرابعة صباحاً ، وتنتهى فى الحادية عشرة . وتبدأ الثانية فى الساعة الثانية عشرة وتنتهى فى السابعة مساء . وهاتان نوبتان نهاريتان فى الصباح وبعد الظهر . أما الثالثة ، وهى النوبة الليلية ، فتبدأ فى

الثامنة مساء وتنتهى فى الثالثة صباحاً . ولا تفرض هـــذه النوبة الثالثة على العمال إلا إذا دعت الضرورة إليها : وفى هذه الحالة . . كانوا يسهرون على ضوء المصابيح الايلية ، وحتى لا يغلبهم النعاس فى هذه الساعات المتأخرة ، أو لشدة التعب ، كانوا يخففون من وطأة هذا العمل الطويل الشاق بالغناء الذى كانوا مدربين عليه ، أو لم يكن غير سار لهم كلية . ولم يكن يباح فى بعض المناجم لأى من العمال العمل نوبتين متعاقبتين ، لأنه كان كثيراً ما يغلب عليه النعاس فى المنجم من شدة الإجهاد من كثرة العمل إلى حد مفرط ، وكان يباح ذلك فى أماكن أخرى لأن العامل لا يستطيع العيش على أجر نوبة واحدة ، وخاصة إذا ارتفع ثمن الحاجيات .

ولا يشتغل العمال أيام السبت ، لأنهم يبتاعون فيها كل ما يلزمهم من ضرورات الحياة ، كذلك لا يعملون أيام الآحاد والأعياد السنوية . ولكنهم فى هـــذه المناسبات يخصصون ساعات النوبة للأغراض الدينية . ومهما يكن من أمر فإن العمال لا يستريحون . . . إذا اقتضت الظروف أن يعملوا ، فقد يجبرهم عليه أحياناً اندفاع الماء أو انهيار وشيك الوقوع . وفى مثل هذه الحالات لا يعتبر العمل فى أيام العطلة أمراً لا يتفق مع الدين . وفوق ذلك ، فإن العمال من هذه الفئة أقوياء أشداء ألفوا هذا الكدح والمشقة منذ ولادتهم(٢) .

وفى ١٥٢٧ عين جوج أجريكولا طبيباً لمدينة جوتشمستال Goochimsthal . وفى مدينة التعدين انصرف جورج بين الحين والحين إلى التعدين ، وهناك ، وفى أماكن أخرى تحمس جورج وافتتن بدراسة تاريخ التعدين وعملياته وعلم المعادن ، وعكف على البحث عشرين عاماً ، أكمل بعدها (١٥٥٠) « رسالته عن المعادن » وهي رسالة ممتازة فى موضوعها بالنسبة لعصرها ، لها من القيمة

مثل ما لروائع كوبرنيكس وفيساليوس التى ظهرت فى نفس العقدين من السنين ، ولقد وصف فى تفصيل دقيق آلات التعدين والصهر وتقنياتهما وعملياتهما ، واستخدم الفنانين فى توضيحها بالرسوم . وهو أول من جزم بأن البزموت و لأنتيمون معدنان أوليان حقيقيان ، وميز نحو عشرين صنفاً من المعادن لم تكن معروفة من قبل . وكان أول من شرح تركيب عروق الخام فى طبقات الصخور من رواسب مغدنية خلفتها مجارى المياه التى تنساب فى الأرض وتحت الأرض(*)(٣) .

وحظى التعدين وعلم المعادن والمنسوجات بأكبر نصيب من التحسينات الآلية (الميكانيكية) التى ينسب الفضل فيها لهذا العصر . وإن أول سكاك حديدية لهى تلك التى كانت تجر أو تدفع عليها العربات التى تحمل الخام . وفى عام ١٥٣٣ أضاف جوهان جورحن إلى عجلة الغزل — التى كانت تدار حتى ذلك العهد باليد — ذراعا (دواسة) تدار بواسطة القدم ، ومن ثم تكون يد الغزال طليقة ، وسرعان ما ضوعف الإنتاج بهذه الطريقة : وازداد الوثوق بدقة الساعات وصغر حجمها ، وزينت بالحفر والنقوش والجواهر وطليت بالمينا . واقتنى هنرى الثامن ساعة دقيقة الحجم ، تملأ مرة واحدة كل أسبوع . على أن أحسن ساعات العصر كان معدل الخطأ فيها نحو ١٥ دقيقة فى كل يوم (٤) .

وتعثرت المواصلات والنقل خلف التجارة والصناعة . وتوسعت الخدمات البريدية إلى حد نقل المراسلات الخاصة خلال القرن السادس عشر ، وحث الانقلاب التجارى على بناء السفن وصارت السفن أرفع وأعمق ، فساعد

(*) نبذ أجريكولا « عصا الاستذباء » أو الغصن المتشعب » (وهى التى كانت غالباً ما تستعمل آنذاك للتعرف على وجود المعادن تحت الأرض) باعتبارها غير ذات نفع . ولكن عدادات جيجر تميل إلى تقدير هذه العصى المشجعة .

ذلك على ثباتها وازدياد سرعتها . وزاد عدد الصوارى من واحد إلى ثلاثة ، والأشرعة إلى خمسة أو ستة(٥) . ولم يقتصر السباق بين فرانسوا الأول وهنرى الثامن ، على الحرب والحب واللباس ، بل تعداه إلى ابتناء السفن ، وكان لكل منهما مركب فخم بنى بناء على طلبه لإشباع نزواته ، به دور علوى ، يرفرف عليه فى زهو واعتزاز علم البطولة الذى أرضى غرور كل منهما . وكانت سفينة أوائل القرن السادس عشر تستطيع أن تقطع فى البحر المتوسط عشرة أميال فى الساعة فى الطقس المعتدل ، ولكن السفن الثقيلة المصممة للمحيط الأطلسى كانت أسعد حظاً ، حيث كانت تقطع ١٢٥ ميلا فى اليوم . وكانت أسرع رحلة برية هى رحلة حامل البريد ، الذى كان يركب لمسافة خمسة وثمانين ميلا فى اليوم . ومع ذلك فإن الأنباء الهامة كانت عادة تصل من البندقية إلى باريس أو مدريد فى عشرة أيام أو أحد عشر يوماً . ولعل أحداً لم يقدر آنذاك أية راحة ينعم بها نتيجة لوصول الأنباء متأخرة إلى حد يتعذر معه اتخاذ أى إجراء بشأنها . وكان معظم السفر يالبر على ظهور الخيل ، ومن هنا جاءت الحلقة الحديدية الثقيلة المثبتة فى باب مدخل كل بيت ، يشد إليها حبل تقيد به الدابة . وتضاعف عدد العربات ، ولكن الطرق بلغت من الرخاوة حداً لا يصلح كثيراً لمرور العجلات ، ومن ثم كان لزاماً تزويد العربات بستة من الجياد أو أكثر لتجرها فى الأوحال التى يتعذر تفاديها ، وما كان يتوقع من العربات أن تقطع أكثر من عشرين ميلا فى اليوم ؛ وظلت المحفات التى يحملها الخدم تستعملها السيدات ذوات اليسار فى تنقلهن ، أما عامة الشعب فكانوا يسيرون على الأقدام عبر القارة .

وكان السفر مألوفاً رغم الطرق والحالات ؛ وذهب إرزم إلى أن خانات فرنسا كانت مقبولة محتملة ، وعلى الأخص لأن النادلات الصغيرات « يقهقهن ويقمن بحيل وألعاب مرحة ، وإذا غادرت المكان كن يحيينك بالعناق » ؛

« كل ذلك مقابل أجر زهيد » ولكنه رمى أصحاب الخالات الألمان بالفظاظة وغلظة الطباع والبطء والقذارة :

إذا فرغت من تدبير أمر جوادك تدخل إلى غرفة المدنأة ، بالحذاء العالى الساقين ، والأمتعة والأوحال وغيرها ، لأن هذه حجرة عامة لجميع القادمين . وفى غرفة المدفأة تخلع حذاءك ، وتلبس نعليك وتبدل قميصك إذا شئت . وهناك ترى رجلا يمشط رأسه وآخر . . . يتجشأ الثوم . . . وإنك لتسمع من فوضى اللغات واللهجات، كما لوكنت فى مبنى برج بابل . . . وفى رأيى أنه ليس ثمة شىء أخطر من التنفس فى مثل هذ الجو الخانق ، وخاصة إذا كانت أجسام الناس مفتحة بفعل الحرارة . . . وثمة شىء لا أرى ذكره . . . ثم النساء والأنفاس الكريهة المنتنة . . .

ولا ريب أن كثيرين مصابون بالجدرى أو الزهرى الأسبانى ، أو كما يسمونه الفرنسى . ولو أنها أمراض منتشرة فى كل بلد(٦) .

إذا جرت الأمور على هذا النحو ، حقاً ، فى بعض الخانات ، فيمكن أن نغتفر خطأ أو اثنين للتجار المتجولين الذين يحطون رحالهم فى هذه الخانات ويحتملون متاعبها فى عملية ربط القرية بالقرية ، والأمة بالأمة ، فى نسيج اقتصادى دائم الاتساع والانتشار . فقد فتح فى كل عقد من السنين طريق جديد ، براً كما فعل تشانسلر فى روسيا ، وبحراً كما تم فى آلاف الرحلات البحرية المغامرة . وقد اتجر (شيلوك شكسبير) أى اليهود مع إنجلترا ولشبونة وطرابلس ومصر والهند والمكسيك(٧) . وكان لجنوة مستعمرات تجارية فى البحر الأسود وأرمينيه وسوريه وفلسطين وأسبانيا . فلقد عقدت الصلح مع الباب العالى ، وباعت الأسلحة إلى تركيا التى كانت فى حرب ضد العالم المسيحي ، والتقطت فرنسا هذه الفكرة ، وعقدت اتفاقات خاصة بها مع

سلاطين تركيا . وبعد ١٥٦٠ سيطرت على تجارة البحر المتوسط ، وكانت أنتورب تتلقى البضائع فى كل لحظة ، وتنقلها بالسفن إلى كل مكان فى العالم .

ولمواجهة متطلبات هذا الاقتصاد المتوسع ، حسن رجال المصارف من خدماتهم وأساليبهم . ولما ارتفعت نفقات الحرب بالانتقال من فرق الإقطاع المجندة الذين أحضروا معهم أقواسهم وسهامهم ورماحهم وسيوفهم ، إلى جيوش وطنية أو جنود مرتزقة مزودين بالأسلحة النارية والمدافع ، وتدفع الدولة رواتبهم وأجورهم — اقترضت الحكومات مبالغ لم يسبق لها مثيل من أصحاب المصارف . وكانت الفائدة التى تدفعها الحكومات أو تعجز عن دفعها ، تقيم مؤسسة مالية ، أو تقوض أركان أخرى . وكان أصحاب المصارف يقترضون مدخرات الشعب نظير فائدة ، ليمولوا بها الصفقات الضخمة فى التجارة والصناعة . وكانت صكوك التبادل تحل محل الشحنات الثقيلة المرهقة من العملة المتداولة أو البضائع . واختلفت معدلات فوائد القروض ولم يكن هذا الاختلاف نتيجة لجشع المقرضين ، بقدر ما هو نتيجة للثقة فى المقترضين . ومن ثم كانت المدن الحرة الألمانية التى سيطر عليها تجار يتميزون بالدفع الفورى العاجل ، تستطيع أن تقترض بفائدة قدرها ٥٪ ، على حين أن فرنسوا الأول اقترض بفائدة قدرها ١٠٪ ، وشارل الخامس بفائدة قدرها ٢٠٪ . وانخفض سعر الفائدة تبعاً للاستقرار الاقتصادى :

وسكبت مقادير وفيرة من العملة السائلة من معدنى الذهب والفضة اللذين استخرجا من مناجم ألمانيا والمجر وأسبانيا والمكسيك وبيرو ، وجاء المدد الجديد من المعادن النفيسة فى الوقت المناسب ، لأن البضائع كانت قد تزايدت أسرع مما تزايدت العملة . وكان جزء من ثمن واردات آسيا يدفع فى صورة صادرات ، والجزء الباقى نقداً من الذهب أو الفضة ، ومن ثم هبطت

الأسعار فى غضون السنين التى سبقت قيام كولمبس برحلاته ، إلى حد تعويق المغامرات والتجارة : وبعد تطوير المناجم فى أوربا واستيراد الذهب والفضة من أفريقية وأمريكا ، فاقت كميات المعادن النفيسة إنتاج السلع ، فارتفعت الأسعار ، وانتعشت الأعمال وابتهج أصحابها ، وزحزح الاقتصاد الجديد القائم على النقود المتحركة الاقتصاد القديم الذى تركز فى امتلاك الأرض أو سيطرة النقابات على الصناعة ، واحتل مكانه .

وكانت النقابات فى دور الانحلال : وكانت قد نشأت وقويت فى عهد تحكم المجالس البلدية وحماية الإنتاج المحلى ، ولم تكن على درجة من التنظيم تسمح لها بتقديم رأس المال . أو بالشراء بالجملة من الموارد النائية ، أو باستخدام أساليب المصانع وتقسيم العمل ، أو الوصول بمنتجاتها إلى الأسواق البعيدة : وكانت منذ القرن الثالث عشر وما بعده قد ضربت حولها نطاقاً من العزلة الأرستقراطية وسوأت ظروف العمل ، حتى بات من اليسير سوق العمال المهرة إلى أحضان رب العمل صاحب رأس المال ، وكان عامل الربح هو الذى يحركه ويزوده بالحيوية والنشاط ، ولكنه عرف كيف يجمع المدخرات إلى رأس المال ، وكيف ومن أين يشترى الآلات والمواد الخام ويدير المناجم ، ويؤسس المصانع ، ويجند لها العمال ، ويقسم العمل ، ويخصص العمال لكل فرع منه ، ويفتح الأسواق الأجنبية ويصل إليها ، ويمول الانتخابات ويسيطر على الحكومات . وكانت الإمدادات الجديدة من الذهب والفضة تدعو بصوت عال إلى استثمارات تدر الربح الوفير : وبات الذهب الأمريكى رأس مال أوربا . وخلقت الرأسمالية « سحر المنافسة » ، وحفزت إلى المغامرة ، وأنتجت السعى المحموم وراء المزيد من الطرق الاقتصادية للإنتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة مفر من أن تخلف وراءها القناعة الذاتيـــة التى اتسم بها رجال النقابات . وتتركهم يتهادون فى أساليبهم النمطية الرئيسية القديمة : ولقد فاق النظام

الجديد فى إنتاجه النظام القديم كماً لا كيفاً ، لأن التجار كانوا ينادون بإنتاج كميات كبيرة ليسددوا بصادراتهم الصناعية ثمن الواردات من الشرق .

وكانت الثروة الجديدة محصورة إلى حد كبير ، فى أيدى التجار وأصحاب رءوس الأموال وأصحاب المصانع ، وحلفائهم فى الحكومة ، وظل بعض النبلاء يجمعون الثروة عن طريق الضياع الواسعة التى يستأجرها مئات المستأجرين ، أو الحظائر التى تمد صناعة النسيج بالصوف . على أن الغالبية من ملاك الأرض الأرستقراطيين وجدوا أنفسهم محصورين بين شقى الرحى : الملوك من جهة ، والمدن التى سيطر عليها رجال الأعمال من جهة أخرى ، وانحطت قوتهم السياسية ؛ وكان عليهم أن يقنعوا بكرم المحتد وشرف الأرومة . وشاركت الطبقة الكادحة النبلاء مصائب التضخم ، فمن سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ ارتفع ثمن القمح الذى صنع منه الفقراء رغيف الخبز إلى ١٥٠ ٪ فى انجلترا ، و٢٠٠ ٪ فى فرنسا ٣٠٠ ٪ فى ألمانيا ؛ وفى سنة ١٣٠٠ كان سعر البيض فى انجلترا ٤ بنسات لكل ١٢٠ بيضة ، وارتفع ثمن المقدار نفسه إلى ٥ بنسات فى سنة ١٤٠٠ ، وإلى ٧ بنسات فى سنة ١٥٠٠ ، وإلى ٤٢ بنسا فى سنة ١٥٧٠(٨) . وارتفعت الأجور ، ولكن فى بطء أكثر ، لأن الحكومات كانت تتولى تنظيمها . وحدد قانون ١٥٦٣ فى انجلترا الأجر السنوى للفلاح المستأجر بمبلغ قدره ١٢ دولاراً ، ولعامل المزرعة ٩٫٥٠ ، وللخادم الرجل ٧٫٢٥ ، علماً بأن القوة الشرائية لهذه المبالغ فى سنة ١٥٦٣ تفوق مثيلتها فى ١٩٥٤ خمساً وعشرين مرة ، فوصلت الأجور إلى نحو ١٨٠ دولاراً سنوياً . على أننا يجب أن نلاحظ أن الطعام والإقامة كانتا تضافان إلى هذه الأجور ، وجملة القول أن التغييرات الاقتصادية فى القرن السادس عشر تركت الطبقات العاملة أفقر نسبياً

وأضعف سياسياً ، من ذى قبل . فقد أنتج العمال السلع التى كانت تصدر ثمناً للكماليات المستوردة التى جعلت حياة نفر قليل من الناس مشرقة باسمة ناعمة .

واتسم الصراع بين الطبقات بمرارة ، قل أن عرف لها مثيل منذ عهد سبارتاكوس (زعيم ثورة العبيد ٧١ ق . م .) وخير شاهد على ذلك ثورة الأهالى فى أسبانيا ، وحرب الفلاحين فى ألمانيا ، وثورة Ket فى انجلترا . وكثرت الإضرابات ، ولكنها كانت تخمد بائتلاف أرباب العمل مع الحكومة . وفى ١٥٥٨ قررت نقابة عمال النسيج التى كان يسيطر عليها السادة أن أى عامل يرفض العمل بمقتضى الشروط التى يضعها رب العمل يسجن لأول مخالفة ، ثم يضرب بالسياط ويوصم بالعار فى الثانية . وكانت قوانين التشرد فى عهد هنرى الثامن وإدوارد السادس من القسوة والوحشية إلى حد أن قلة قليلة من العمال تجاسروا على أن يوجدوا متعطلين بلا عمل . ونص قانون ١٥٤٧ على أن أى عامل قادر من الناحية الجسمانية يترك عمله ليتسكع فى البلاد كالمتشردين ، يجب أن يدمغ صدره بحرف "V" (الحرف الأول من Vagabond متشرد) ، ويدفع به بوصفه عبداً رقيقاً إلى أحد المواطنين فى الجهات المجاورة ، لمدة عامين ، ليعيش على « الخبز والماء وقليل من الشراب وحثالة اللحم » ، فإذا لم يرتدع وتكرر منه التشرد ، دمغ على خده أو جبهته بحرف "S" (Slave عبد) وحكم عليه بالاسترقاق طيلة حياته(٩) . وبفضل الشعب الإنجليزى ، وكان فخراً وشرفاً له ، أنه لم يمكن تطبيق هذه الإجراءات وسرعان ما أبطلت ، ولكنها تكشف عن طباع حكومات القرن السادس عشر ، وأصدر جورج دوق سكسونيا قراراً بألا ترفع أجور عمال المناجم فى منطقته ، وألا يسمح لعامل بترك عمله للبحث عن عمل فى مكان آخر ، وألا يستخدم رب العمل عاملا كان قد أثار الاستياء فى منجم

آخر ، وأجاز القانون صراحة أو ضمنا تشغيل الأطفال : وقام الأطفال فى فلاندرز بصناعة المخرمات برمتها ، وحرم القانون اشتغال البنات فوق سن الثانية عشرة فى هذه المهنة(١٠) . أما قوانين الاحتكارات والمضاربات والربا فكان مصيرها التجاهل أو المراوغة فى التنفيذ .

وتصادف ظهور الإصلاح الدينى مع قيام الاقتصاد الجديد ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تناهض « الأعمال والمشروعات والتجارة » فى حساسية بالغة . فلم يتفق كل هذا مع مزاج الكنيسة . وكانت قد أدانت فوائد القروض ، وأجازت من الناحية الدينية قيام النقابات ، وقدست الفقر وانتقدت الثراء ، وأعفت العمال من العمل أيام الآحاد والعطلات التى كانت كثيرة ، إلى حد أنه فى ١٥٥٠ بلغ عدد الأيام التى لا عمل فيها ١١٥ يوماً فى السنة فى الأقطار الكاثوليكية(١١) . وربما كان لهذا أثره فى الإبطاء بالتصليع والإثراء فى هذه البلاد . ودافع رجال الا هوت ، بموافقة الكنيسة ، عن فكرة تحديد « أسعار عادلة » لضرورات الحياة بمقتضى القانون ، وكان توماس الأكوينى قد وصم السعى إلى المال ، بعد الوفاء بحاجيات الإنسان ، بأنه « جشع آثم » ، وحكم بأن أية مقتنيات أو مدخرات فائضة عن الحاجة ، « تخصص بمقتضى القانون الطبيعى لإغاثة الفقراء واسعافهم »(١٢) . وشارك لوثر فى هذه الآراء ، ولكن التطور العام للبروتستانتية تعاون ، دون وعى ، مع الانقلاب الرأسمالى . وألغيت عطلات القديسين ، وكان من نتيجة ذلك زيادة العمل ورأس المال معاً . ولقى المذهب الدينى الجديد تأييداً ودعما من رجال الأعمال ، وجزاء مجاملة مجاملة مثلها ، فنظر البروتستانت إلى الثروة بعين الإجلال والإكبار ، وأثنوا على التدبير والاقتصاد ، وشجعوا العمل على أنه فضيلة ، وارتضوا الفائدة على أنها مكافأة مشروعة لمخاطرة المرء بمدخراته .

٢ ـ القانون

لقد كان عصراً قاسياً رهيباً ، انسجمت قوانينه مع اقتصاد لا يرحم ، وإملاق مخز وفن كئيب ، ولاهوت تخلى ربه عن المسيح وتبرأ منه .

وكانت الجريمة أمراً طبيعياً ، بين سكان كتب على معظمهم الفقر والفاقة فى الدنيا ، واللعنة فى الآخرة . وكان القتل منتشراً بكثرة فى كل الطبقات . وتدلى الخنجر من حزام أى رجل ذى وزن ، أما الضعفاء فقد اعتمدوا على القانون فى إصلاح أخطائهم . وكانت جرائم الهوى والانفعال كثيرة جداً قدر كثرتها فى روايات شكسبير . فلم يكن بعد فى زمرة الرجال أى « عطيل » أخفق فى ذبح زوجته التى اشتبه فى سلوكها . واعتبر المسافرون قطع الطرق أمراً مفروغاً منه أو قضية مسلماً بها ، فساروا فى جماعات . وكان عدد اللصوص فى المدن التى لم تزل غير مضاءة ليلا ، وفيراً قدر وفرة العاهرات . وكان لزاماً أن يكون بيت الرجل حصناً منيعاً . وفى أوج عظمة فرنسوا الأول ، أعملت السلب والنهب فى باريس فى وضح النهار عصابة من اللصوص أطلق عليها اسم « الأولاد الأشرار » . ويروى لنا برانتوم ، رواية غير موثوقة كما تعودنا منه ، كيف أن شارل التاسع رغب فى أن يعرف كيف ينفذ النشالون أفانينهم ، « فأمر شرطته بدعوة بعضهم إلى حفلة راقصة ملكية ، وطلب بعد انتهاء الحفل أن يرى غنائمهم ، فوجد أن ما جمعوه من نقود وحلى وملابس بلغ دون تباه أو تفاخر ، فى هذا المساء ، ما قيمته عدة آلاف من الدولارات ، مما ظن معه أن الملك سيموت من كثرة الضحك » . ورخص لهم فى الاحتفاظ بحصيلة فنهم ودراستهم ، ولكنه ضمهم إلى الجيش لأن مماتهم خير من بقائهم على قيد الحياة(١٣) . فإذا صنفنا ، باعتبارها جرائم ، الغش فى السلع ، والمغالطة التى تتسم بها حيل رجال الأعمال ، وتفشى الرشوة فى المحاكم ، والاستيلاء على أملاك الكنيسة ، وتوسيع الحدود بالغزو

والفتح ، نقول إذا صنفنا هذه كلها فى عداد الجرائم ، لوجدنا أن واحداً من بين كل اثنين فى أوربا لص ، وقد نضفى على بعضهم الحصانة الأكليريكية ، وقد نسلم بوجود حرفى أمين هنا أو هناك . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً من إحراق المبانى عمداً ، وبعضاً من حوادث اغتصاب الفتيات ، وقليلا من الخيانة ، لبـــدأنا ندرك المشاكل التى تواجهها قوات النظام وحماة القانون .

وقد نظمت قوات النظام والقانون هذه ، لتوقيع العقاب ، أكثر منها لمنع الجرائم ، وكان رجال الشرطة فى بعض المدن الكبرى ، مثل باريس ، هم حفظة الأمن ، وكان لكل قسم فى المدينة مراقبوه وحراسه ، ولكل أبرشية شرطتها . ولكن ضبط الأمن والنظام كان فى المدن سيئاً إجمالا . وأجهد رجال الحكم أنفسهم فى مكافحة الطبيعة البشرية ، وأخيراً قدروا أنه من الأفضل والأقل تكلفة ، الحد من الجرائم بفرض عقوبات بالغة الشدة وتنفيذها علنا أمام أعين الناس . . وكان هناك عشرات من الجرائم الرئيسية : القتل ، الخيانة ، الهرطقة ، تدنيس المقدسات والمعابد ، السحر ، السلب ، التزوير ، التزييف ، التهريب ، الإحراق عمداً ، الحنث بالقسم ، الزنى ، اغتصاب الفتيات (إذا لم يسو بالزواج) ، اللواط ، « الانغماس فى الشهوات البهيمية » ، غش الموازين والمقاييس ، إفساد الطعام ، تخريب الممتلكات ليلا ، الهروب من السجن ، الإخفاق فى محاولة الانتحار ، وقد تكون العقوبة ضرب العنق بدون ألم أو تعذيب نسبياً ، وهذا امتياز اختص به عادة السيدات وأفاضل الرجال ، أما من هم أقل مكانة فكانوا يشنقون . أما الهراطقة وقتلة الأزواج فكانوا يحرقون . أما السفاحون البارزون فكانوا يشدون أطراف الواحد منهم (يديه ورجليه) إلى أربعة خيول يجرى كل منها فى اتجاه مضاد حتى يتمزق جسم المجرم . وأصدر هنرى الثامن فى ١٥٣١ قانوناً يعاقب من يدس السم ، بالغلى حياً(١٤) ، كما نفعل نحن الأكثر وداعة ورقة بالمحار أو السمك .

ولص قانون محلى فى سالزبرج بأن يحرق المزور أو يغلى حتى الموت . وأن يقطع لسان الحانث فى اليمين من رقبته . أما الخادم الذى يضاجع زوجة سيده أو ابنته أو شقيقته فيضرب عنقه أو يشنق(١٥) ؛ وأحرقت جولين رابو فى آنجرز (١٥٣١) لأنها كانت قد قتلت طفلها أثر ولادة موئلمة(١٦) . وهناك أيضاً ، إذا صدقنا ما رواه بودن ، عدة أفراد أحرقوا أحياء لتناولهم اللحم يوم الجمعة ، ورفضهم الندم على ما فعلوا ، أما الذين أظهروا الندم فكانت عقوبتهم مجرد الشنق(١٧) ؛ وكانت العادة أن تترك جثة المشنوق معلقة حتى تنهش الغربان لحمها ، ليكون عظة وعبرة للأحياء ، وفى الجرائم الصغرى كان يجلد الرجل أو المرأة أو تقطع إحدى يديه أو قدميه أو أذنيه ، أو أنفه ، أو تفقأ إحدى عينيه أو كلتاهما ، أو يكوى بالحديد المحمى ؛ وهناك جنح أخف كان عقابها السجن الذى تختلف فيه ظروف المعاملة بين المجاملة والخشونة ، أو تعذيب المذنب بآلة خشبية ذات ثقوب تقيد فيها رجلاه ويداه ، أو إدخال أيدى المذنب ورأسه فى آلة خشبية تسمى « المشهرة » ، أو الجلد ، أو التعذيب على كرسى التغطيس ؛ وكان السجن وفاء للدين معروفاً شائعاً فى جميع أنحاء أوربا . وبصفة عامة كان قانون العقوبات فى القرن السادس عشر أشد قساوة منه فى العصور الوسطى ، ولقد عكس الفوضى الأخلاقية فى ذاك العصر .

ولم يكن الناس يستاءون من هذه العقوبات الصارمة ، بل لقد أحسوا ببعض السرور والابتهاج فى مشاهدة تنفيذها وساعدوا فى بعض الأحيان فى التنفيذ . ولما اعترف مونتكوكولى تحت وطأة التعذيب ، بأنه كان قد سمم ، أو حاول أن يسمم ، فرانسيس ، الابن العزيز المحبوب لفرانسوا الأول ، مزقت أوصاله حياً ، بربط أطرافه إلى أربعة خيول جرت فى أربعة اتجاهات ، (ليون ١٥٣٦) وقيل إن الجمهور مزق بقايا جسمه إلى قطع

صغيرة ، وفتت أنفه ، واقتلع عينيه ، وحطم فكيه ، ومزغ رأسه فى الوحل ، وجعله يموت ألف مرة قبل أن يفارق الحياة(١٨) .

وهناك إلى جانب القوانين التى شرعت للجرائم ، وضعت « القوانين الزرقاء أو قوانين المتطهرين » ضد اللهو والتسلية التى يظن أنها تجافى التقى والورع ، أو الدعة التى تنافى العرف بشكل حاد ، فقد اقتضى القانون العرفى فى العالم الكاثوليكى أكل السمك فى أيام الجمعة ، كما اقتضته قوانين الدولة فى انجلترا البروتستانتية فى عهد إدوارد السادس دعماً لصناعة صيد الأسماك ، وتدريباً للرجال على ركوب البحر من أجل الأسطول(١٩) . وكان الميسر دائماً غير مشروع ، ودائماً شائعاً مرغوباً فيه . وأمر فرانسوا ، الذى عرف أساليب اللهو والتسلية ، بالقبض على من يلعبون الورق أو النرد فى الحانات أو نوادى الألعاب (١٥٢٦) ولكنه أباح إقامة « يانصيب » عام (١٥٣٩) . وقلما كان القانون يعاقب على إدمان الخمر ، على حين اعتبر البطالة والخمول جريمة رئيسية تقريباً . أما قوانين التبذير أو الإنفاق بسخاء — وهى التى وضعت لضبط الأغنياء الجدد الذين ينفقون إنفاقاً مريباً يدعو إلى الاشتباه ، والمحافظة على فوارق الطبقات ، فقد حددت هذه القوانين ، الأزياء والزينة والأثاث ووجبات الطعام وواجبات الضيافة . ويقول لوثر « عندما كنت صبياً كانت الألعاب محرمة ، حتى أن صانعى أوراق اللعب ، والعازفين على المزمار والممثلين لم يكن يسمح لهم بشهود الأسرار المقدسة . أما من كانوا قد اشتركوا فى الألعاب ، أو حضروا حفلات الألعاب أو الروايات ، فكانوا يجعلون هذا موضوع اعتراف أمام القسيس »(٢٠) . وعاشت هذه المحرمات بعد الإصلاح الدينى . وبلغت ذروتها فى أخريات القرن السادس عشر .

وثمة بعض العزاء فى أن التطبيق قل أن كان على قدر صرامة القانون ،

وكان التهرب أمراً ميسوراً . وكم من قاض أو محلف ، بدافع الشفقة أو التخويف أو بفضل الرشوة — أطلق سراج كثير من الأوغاد مقابل عقوبة يسيرة أو غرامة . وكانت قوانين اللجوء إلى الكنيسة لا يزال معمولا بها فى عهد هنرى الثامن ؛ وكانت المرونة فى التطبيق ، على أية حال ، تتوازن مع استعمال التعذيب لانتزاع الاعترافات أو البيانات . وهناك كانت قوانين هنرى الثامن ، على الرغم من كونها أقسى القوانين فى تاريخ انجلترا — تقول كانت متقدمة عن زمانها(٢١) ، لأنها حرمت التعذيب إلا إذا روئى أن الجريمة علاقة بالأمن القومى(٢٢) ، ويمكن أن يكون الإبطاء فى محاكمة المتهم تعذيباً أيضاً . فقد شكا كورتيز الأسبانى إلى شارل الخامس من أن المتهمين ، حتى بأخطاء يسيرة ، طال بقاؤهم فى السجن عشر سنين أو نحوها ، قبل أن يحاكموا ، وأن المحاكمات قد تتلكأ لمدة عشرين عاماً(٢٣) .

وترعرع المحامون وتضاعف عددهم مع اضمحلال جماعة الكهنة ، وملأوا مناصب السلطة القضائية والبيروقراطية العالية ، ومثلوا الطبقات الوسطى فى الجمعيات الوطنيـــة والبرلمانات الإقليمية ، وحتى الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين اعتمدوا على المحامين فى القضايا المدنية ، وتكونت منهم فى فرنسا طبقة جديدة : « نبلاء الرداء — الروب » ، أو على حد قول رابليه الهجاء الفرنسى « القطط ذوات الفراء » . واختفى القانون الكنسى فى الأقطار البروتستانتية . وحلت فلسفة التشريع محل اللاهوت « كأداة للمقاومة » فى الجامعات . وعاد القانون الرومانى إلى الحياة فى الأقطار اللاتينية ، وسيطر على ألمانيا فى القرن السادس عشر ، وعاش القانون المحلى معه جنبا إلى جنب فى فرنسا . أما فى انجلترا فقد فضلوا عملية « القانون العرفى » . ولكن كان لقوانين جستنيان بعض الأثر فى تشكيل وتدعيم الحكم المطلق الذى أقامه هنرى الثامن . على أنه فى

بلاط هنرى الثامن نفسه ، ألف قسيسه الخاص توماس ستاركى (١٥٣٧) « حواراً » كانت الفكرة الأساسية فيه أن القوانين يجب أن تفرض إرادة الملك ، وأن الملوك يجب أن يخضعوا للانتخاب والعزل .

لا يمكن أن يطول حكم هذه البلاد حكماً صالحاً ، أو الاحتفاظ فيها بسياسة حكيمة ، طالما أنها تحكم بإرادة فرد لم يتم اختياره بطريق الانتخاب ، بل أتى إلى العرش بالتعاقب الطبيعى . فقلما شهدنا أن الذين يأتون إلى العرش أو الممالك عن طريق هذا التعاقب ، كانوا جديرين بتولى هذه المناصب السامية والسلطات العالية .... وأى شىء أبغض إلى الطبيعة من أن تحكم أمة بأسرها وفق إرادة أمير ؟؟ وأى شىء أكثر تنافياً مع العقل من أن شعباً برمته يحكمه من يعوزه العقل عموماً ؟؟ ... وليس ثمة إنسان يستطيع أن يخلق أميراً حكيماً عاقلا ممن ينقصه الذكاء والحصافة بالطبيعة .... ولكن فى مقدور الإنسان أن ينتخب ويختار من يتوفر فيه العقل والعدالة معاً ، فينصبه أميراً ، ومن ثم يخلع الطاغية المستبد(٢٤) .

وكان موضع العجب والغرابة أن يموت ستاركى موتاً طبيعياً بعد عام واحد من كتابة « حواره » الذى لم يطبع إلا بعد ٣٣٤ سنة من تدوينه !

٣ — الأخلاق

كيف كان سلوك الناس فى العالم المسيحى اللاتينى ؟ إنه لجدير بنا ألا يضللنا جهرهم بالإيمان بالدين ، حيث لم يكن ذلك فى الغالب إلا ولعاً بالشقاق والمشاكسة ، أكثر منه ورعاً وتقوى . فإن نفس الشخص العنيد الذى يستطيع أن يتشدد فى إيمانه يستطيع أن يكون عنيفاً كذلك فى تجديفه ، وإن البنات اللائى ينحنين متظاهرات بالرزانة والاحتشام أمام تماثيل العذراء ،

أيام الأحد ، ليصبغن وجناتهن بالحمرة ويتجملن طيلة الأسبوع يحدوهن الأمل ، وكثيرات منهن انزلقن تحت تأثير الإغراء والغواية ، لمجرد عرض فكرة الزواج . وما كان من الميسور حماية العذارى وعذرتهن وبتولتهن إلا بالتمسك بكل أهذاب العرف والأخلاق والقانون والدين وسلطة الوالدين والتعليم ، و « حدود للشرف » . ولكن ما كان أكثر الاحتيال على الانزلاق . إن الجنود الذين عادوا من الحملات التى كان الخمر والنساء فيها عزاءهم وتسليتهم الأساسية ، وجدوا من المؤلم لهم ومن العسير عليهم أن يروضوا أنفسهم على العفة والامتناع عن شرب الخمر . وانغمس الطلبة فى الفسق والفجور ، واحتجوا بأن الزنى خطيئة عرضية تغتفر»(٢٥) ، ويمكن أن يتجارز عنها المشرعون المستنيرون . ولقد أعلن روبرت جرين أنه فى كمبردج كان قد « أفنى زهرة شبابه بين أوغاد فاجرين لا يقلون عنه دعارة »(٢٦) . وكثيراً ما ظهر الراقصات على المسرح ، أو فى أى مكان آخر ، « عاريات تماماً »(٢٧) . ومن الواضح أن هذه بدعة من أقدم البدع فى الدنيا — ولقد نظر الفنانون بازدراء إلى قواعد السلوك الجنسى ونظمه(٢٨) ، واتفق اللوردات والسيدات مع الفنانين فى ذلك . وكتب برانتوم : « إن الطبقات العليا استخفت بقواعد السلوك عند الغذارى وما يحوم حولهن من شكوك ، وكم من آنسات أعرفهن فى دنيا العظماء ، لم يأخذن معهن بكارتهن إلى فراش الزوجية »(٢٩) . ولقد لحظنا نوع القصة التى بدا أن مرجريت نافار الجميلة سمعتها دون أن تحمر وجنتاها خجلا . وكم زخرت المكتبات بكتب الأدب الخليع المكشوف ، التى تدفع فيها أثمان عالية فى نهم شديد(٣٠) . وكان لأرتينو (هجاء لاذع فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر) فى باريس شعبية قدر شعبيته فى روما » ، ولم يحس رابليه ، الكاهن بأنه من الجائز أن ينقص المبيع من ملحمته « جارجنتوان Gargantuan » بحشوها بكلام جعل أرتينو يسارع لإخفائه . ووجد

الفنانون سوقاً رائجة للصور الجنسية ، بل حتى للانحرافات المصورة(٣١) ، وكان الباعة المتجولون فى الشوارع ، وحملة البريد واللاعبون الجوالون يبيعون روائع الصور التى من هذا القبيل ، حتى فى المعارض والأسواق الخيرية الكبرى(٣٢) : لقد وجدت كل ألوان الابتذال والانحراف لها مكاناً فسيحاً فى تلك الحقبة(٣٣) ، مثلما وجدته فى الصفحات التى دونها برانتوم والتى تتسم بالأرستقراطية(٣٤) .

وزاد الدخل من البغاء وارتفع شأنه . وحدث فى هذا العصر أن أطلق على من يمارسنه « سيدات البلاط » — (فى مقابل رجال البلاط) : وقدم بعض القواد البغايا إلى جيوشهم ، حرصاً منهم على حماية سيدات البلاد التى يحتلونها(٣٥) . ولكن نسبة الأمراض السرية ارتفعت إلى حد الوباء تقريباً . وكم أصدرت الحكومة تلو الحكومة من تشريعات ضد « بنات الهوى » التعيسات . وعلى حين أكد لوثر أن الرغبة الجنسية أمر طبيعى ، نراه قد كافح للإقلال من البغاء ، وبتحريض منه حرمته كثير من مدن ألمانيا اللوثرية(٣٦) . وفى ١٥٦٠ جدد ميشيل دى لوبيتال مستشار فرنسا قوانين لويس التاسع ضد هذه الرذيلة ، والظاهر أن أوامره نفذت .

وفى الوقت نفسه نجد أن الشهوة الحمقاء للجسد من أجل الجسد ، أورثت ظمأ النفس إلى النفس ، وإلى كل ما كان يزدان به التودد والحب الرومانتيكى من رقة وكياسة ، وتدفقت الدماء التى تغلى فى العروق فى النظرات المختاسة والرسائل الغرامية والقصائد الغنائية والمقطوعات الشعرية والأناشيد والقطع الغزلية والهدايا المشجعة واللقاءات السرية . ورحبت بعض الشخصيات المهذبة أو السيدات اللعوبات من إيطاليا وكاستليونى ، بالتسلى بحب أفلاطونى تكون فيه السيدة والرفيق المتودد إليها صديقين حميمين ، ولكن محافظين على الطهارة والعفة ، ولكن مثل هذا اللون من كبح جماح النفس لم يكن من شيمة هذا العصر . فقد كان الرجال شهوانيين بطريقة مكشوفة ، وأحب النساء هذه

الخلة فيهم ، وكثر شعر الغرام ، ولكنه كان مقدمة لافتناص النساء .

وبالنسبة للزواج ، بقى الآباء واقعيين إلى حد عدم السماح للمحب باختيار رفيقة الحياة ، فقد كان الزواج فى شريعتهم زفافاً إلى الضيعة أو الثروة أو المكانة الاجتماعية (زواج المصلحة) ، ونصح إرزم الذى كان شديد الإحساس بمفاتن المرأة ، لا بالزواج ، نصح الصغار بالزواج ممن يختاره الكبار ، على أن يتركوا الحب يندو بالمزاملة والمرافقة أفضل من أن يذبل ويذوى بإشباع الشهوة(٣٧) ، واتفق رابليه معه فى هذا الرأى(٣٨) . وعلى الرغم من هؤلاء الثقاة ، ثار عدد متزايد من الشباب ، مثل جان د ألبرت ، على الزيجات المبنية على الثروات والعقارات الثابتة . ونعى روجر أسكام معلم الملكة اليصابات : « أن عهدنا بعيد جداً عن النظام والامتثال القديمين ؛ حتى أن الشبان ، بل والبنات أنفسهن — أصبح الجميع يجرؤون على الزواج رغم أنف الأب والأم والرب والنظام السليم وكل شىء(٣٩) . وفزع لوثر حين علم بأن ابن ميلانكتون خطب لنفسه عروساً دون استشارة أبيه ، وأن أحد صغار القضاة فى وتنبرج أعلن صحة هذه الخطبة ، ورأى المصلح الدينى (لوثر) أن هذا سيسىء حتما إلى سمعة وتنبرج . وفى ٢٢ يناير ١٥٤٤ كتب فى الجامعة :—

إن لدينا عدداً وفيراً من الشبان من مختلف البلاد ، وان سباق البنات ليشتد ، وانهن ليجرين وراء الرفاق فى حجراتهم وقاعاتهم : وحيثما استطعن إليهم سبيلا ، ليعرضن عليهم حبهن الطليق . ولقد سمعت أن كثيراً من الآباء أمروا أبناءهم بالعودة إلى بيوتهم . . . قائلين إننا نعلق الزوجات حول رقاب أبنائهم . . . وفى يوم الأحد التالى ألقيت عظة قوية أدعو الرجال إلى اتباع السبيل القويم والقاعدة اللتين وجدنا منذ بدء الخليقة . . . أعنى أن يزوج الآباء أبناءهم بعضهم من بعض بروية وحسن نية ، دون أن يرتبط الأبناء بارتباط

تمهيدى . . فإن مثل هذه الارتباطات من ابتداع البابا الممقوت ، أوحى بها إليه الشيطان ليحطم ويمزق سلطة الآباء التى منحها الله إياهم وأوصى بها لهم بصفة جدية(٤٠) .

وكان يمكن تنظيم عقود الزواج للأولاد والبنات ابتداء من سن الثالثة ، ولكن كان من الميسور فسخها إذا لم تتحقق . وكانت السن الشرعية للزواج الرابعة عشرة للولد والثانية عشرة للبنت ؛ وكان من المستطاع التجاوز عن العلاقات الجنسية بعد الخطبة وقبل الزفاف ، وحتى قبل الخطبة ، فى السويد وفى ويلز ، كما كان فى بعض المستعمرات الأمريكية فيما بعد ، وكان يسمح للحبيبين بالاشتراك فى فراش واحد دون أن يخلعا ملابسهما ، ولكنهما كانا يذكران بالاحتفاظ بملاءة بينهما حتى لا يلتصق جسماهما(٤١). ولم يعد الزواج فى البلاد البروتستانتية سراً مقدساً ، وما حل عام ١٥٨٠ حتى بات الزواج المدنى يزاحم الزواج على يدى الكاهن . وارتأى لوثر وهنرى الثامن وإرزم والبابا كليمنت السابع أن الزواج من امرأتين يمكن أن يرخص فيه تحت شروط معينة ، وخاصة إذا كان بديلا للطلاق . واتجه رجال الدين من البروتستانت شيئاً فشيئاً إلى إباحة الطلاق ، وكان ذلك فى أول الأمر بسبب الزنى فحسب ، وكانت هذه الجريمة أكثر شيوعاً فى فرنسا ، على الرغم من عادة قتل الزوجة الزانية هناك . وكان الحب غير المشروع جزءاً من الحياة العادية للسيدات الفرنسيات ذوات المركز الاجتماعى المرموق(٤٢) . وكان البيت الذى يضم زوجاً وزوجتين أمراً مألوفاً كثيراً فى فرنسا ، مثال ذلك البيت الذى كان يضم هنرى الثالث وكاترين دى مديتشى وذيان دى بواتييه ، وكانت الزوجة الشرعية (المعقود عليها) ترتضى هذا الوضع فى كياسة مرة ساخرة ، كما يحدث أحياناً فى فرنسا اليوم .

وباستثناء الطبقة الأرستقراطية ، كانت المرأة قبل الزواج معبودة

و إلهة ، وبعده خادمة . وكانت الزوجة تقوم بواجبات الأمومة خير قيام أدون صعوبة أو تردد ، وتبتهج وتفاخر بكثرة الأولاد ، وتحتال على أن تسوس رب البيت . وكان النساء قويات معتادات على العمل الشاق من طلوع الشمس إلى مغربها ، ويقمن بحياكة معظم الملابس اللازمة لأسراتهن . وكن فى بعض الأحيان يعملن مع المقاولين الرأسماليين . وكان النول جزءاً أساسياً من البيت ؛ وفى إنجلترا كان معظم النساء غير المتزوجات غزّالات ، أما سيدات البلاط الفرنسى فكن شيئاً آخر ، ولقد شجعهن فرانسوا الأول على تجميل أجسامهن وملابسهن ؛ واستطعن فى بعض الأحيان تحويل السياسة الوطنية بفعل « القذائف الموجهة » التى تطلقها مفاتنهن . وورد من إيطاليا على فرنسا ، حركة نسائية ، ولكنها لم تلبث أن خمدت ، لأن النساء أدركن أن قوتهن وشهرتهن شىء مستقل عن السياسة والقانون ؛ وكان كثير من نساء الطبقة العليا على درجة عالية من الثقافة . وفى باريس ، وفى غيرها ، بدأ الصالون الفرنسى آنذاك يتشكل ، حيث جعلت السيدات المثقفات ذوات اليسار من بيوتهن ملتقى رجال الدولة والشعراء والفنانين والعلماء والأساقفة والفلاسفة ، وثمة مجموعة أخرى من السيدات الفرنسيات بقين متمسكات بأهداب الفضيلة ، فى هدوء ، وسط العاصفة الهوجاء — عاصفة الجنس — مثل آن أوف فرانس ، وآن أوف برتيانى ، وكلود ، ورينيه . وبصفة عامة ، فإن الإصلاح الدينى الذى نبت فى تربة تيوتونية (ألمانيا وشمال أوربا) عمل على تدعيم فكرة المجتمع الأبوى وسلطان الأب على المرأة والأسرة . كما وضع الإصلاح حداً لتمجيد المرأة فى عصر النهضة ، بوصفها نموذجاً للجمال وعاملة على تمدين الرجل ، كما أدان الكنيسة بالتساهل فى الانحرافات الجنسية ، ومهد الطريق بعد موت لوثر لخلفاء المتطهرين (الحركة البيوريتانية) .

وتدهورت الأخلاق الاجتماعية بنشوء الروح التجارية وشدة الاهتمام بالربح ، والإحجام المؤقت عن أعمال البر والإحسان والصدقات ؛ ووجد

الخداع والتضليل والخيانة — وهى أمور طبيعية فى الإنسان — أساليب وفرصاً جديدة ، منذ حلت اقتصاديات المال محل النظام الإقطاعى ، ومنذ تملك الأغنياء الجدد السندات المالية أكثر مما تملكوا الأرض ، وكانوا قليلا ما يرون الأفراد الذين أفادوا من كدهم وعرقهم ، فإن هؤلاء الأغنياء لم يكن لديهم من تقاليد المسئولية والكرم ما كان قد ذهب وولى مع الثروة القائمة على امتلاك الأرض(٤٣) . وكانت التجارة والصناعة فى العصور الوسطى قد ارتضتا الضوابط الأخلاقية المتمثلة فى توجيهات النقابات والمجالس المحلية والكنيسة ، ولكن الرأسمالية الجديدة رفضت كل هذه القيود ، وجرت الناس إلى منافسة عنيفة طوحت بالقوانين القديمة عرض الحائط(٤٤) . وحلت الحيل التجارية محل الحيل الموسومة بالتقى والورع . وضجت نشرات الإعلان فى ذاك الزمان بالتحذيرات من غش الأطعمة وسائر المنتجات بالجملة . وشكا مجلس الديت فى انسبروك ١٥١٨ ، من أن المستوردين « يضيفون الآجر المسحوق إلى الزنجبيل ، ويخلطون الفلفل بمواد غير صحية »(٤٥). ولحظ لوثر أن التجار « عرفوا كيف يحتالون على زيادة وزن التوابل — مثل الفلفل والزنجبيل والزعفران — بوضعها فى أقبية رطبة ، وأنه ليس ثمة سلعة واحدة لا يستطيعون أن يجنوا من ورائها أرباحاً طائلة بالغش فى الكيل أو العد أو الوزن أو استحداث ألوان مصطنعة . . . وليس ثمة نهاية لحيلهم »(٤٦) . ووصم سناتو البندقية حمولة سفينة من الأصواف الإنجليزية بأنها مغشوشة من حيث الوزن والصنع والحجم(٤٧) .

وكان الناس فى الأقطار اللاتينية لا يزالون يقبلون على أعمال البر والإحسان والصدقات بصدور منشرحة ، كما كان الحال فى العصور الوسطى ، وأنفقت الأسرات النبيلة جزءاً كبيراً من دخولها فى الهبات والصدقات(٤٨) . وورثت ليون عن القرن الخامس عشر منظمة ضخمة للصدقات المحلية أمدها المواطنون بالأموال بسخاء عن طيب خاطر(٤٩) . أما

فى ألمانيا وانجلترا فلم تكن الأيدى مبسوطة إلى هذا الحد . وبذل لوثر كل ما فى وسعه ليعيد لنظام الصدقات الذى كان قد اختل بمصادرة الأمراء لأملاك الأديرة ، ولكنه اعترف بأن جهوده لم تكلل بالنجاح . ورثى « لأن الناس فى عهد البابوية كانوا محسنين وتصدقوا عن طيب خاطر (٥٠) ، ولكنهم فى ظل شريعة الإنجيل لم يعودوا يعطون شيئاً ، وبات كل فرد يسلب الآخر . . . . ولن يتصدق أحد بفلس واحد »(٥١) ؛ ونقل إلينا لاتيمر (من رجال الإصلاح الدينى البروتستانتى فى انجلترا فى القرن السادس عشر) رواية مشابهة : « لم يقس قلب لندن قط كما هو حالها الآن ، فإذا مات أحد الأغنياء فى الأزمنة الغابرة ، كان ذووه يرصدون مبالغ كبيرة من المال لإغاثة الفقراء . . . أما الآن فقد تجمدت المروءة وانقضى عهدها(٥٢) . وأبلغ الكاردينال بول لندن ، أن مدينتين فى إيطاليا تصدقتا بأكثر مما تصدقت به انجلترا بأسرها(٥٣) . وانتهى فرود إلى أنه « لما انتشر الصدق ، تقلص البر والعدل فى انجلترا »(٥٤) ، ويحتمل أنها ليست البروتستانتية ، ولكنها الروح التجارية والكفر هما اللذان أنقصا الصدقات والإحسان .

واشتد الفقر حتى أصبح يشكل أزمة اجتماعية ، فإن المستأجرين المطرودين والعمال المهرة العاطلين والجنود المسرحين هاموا على وجوههم فى الطرقات أو الأكواخ المصنوعة من القش يسألون الناس أو يسلبونهم ليعيشوا : وقدر عدد المعوزين فى أوجزبرج بسدس السكان وفى همبرج بخمسهم ، وفى لندن بربعهم(٥٥) : وصاح المصلح الدينى توماس لفر يوما « يا رب يا رحيم ! ما هذا العدد الضخم من الفقراء والضعفاء والعرج والعمى والمقعدين والمرضى . . . والذين يرقدون أو يزحفون فى الشوارع الموحلة ! »(٥٦) وكان لوثر الذى امتلأ قلبه بالرحمة قدر ما اتسم لسانه بالقسوة ، من أول من أدركوا أن الدولة يجب أن تتولى عن الكنيسة رعاية المعوزين وإنقاذهم . وفى حديثه « إلى أشراف المسيحية فى الأمة الألمانية » (١٥٢٠) اقترح

أن تتكفل كل مدينة بالمعوزين فيها . وفى أثناء تغيبه فى ورتبرج ، نظم أتباعه المتطرفون فى وتنبرج — صندوقاً جماعياً لرعاية الأيتام ، ودفع مهور البنات الفقيرات ، وترتيب منح دراسية للطلبة المحتاجين ، وإقراض الأموال للأسرات التى أخنى عليها الدهر ، وفى سنة ١٥٢٥ أصدر لوثر توجيهاً بإنشاء صندوق عام . حث فيه المواطنين ورجال الدين فى كل قسم على أن يفرضوا على أنفسهم ضريبة يسهمون بها فى تكوين رصيد يقدمون منه قروضاً بدون فائدة للمحتاجين أو غير القادرين على العمل(٥٧) . وفى ١٥٢٢ عينت أوجزبرج ستة « حماة الفقراء » ليشرفوا على توزيع المساعدات عليهم ، وتبعتها نورمبرج فى الحال ، ثم ستراسبورج ويرسلاو (١٥٢٣) ، وراتسبون ومجدبرج (١٥٢٤) .

وفى تلك السنة كتب أسبانى من دعاة الحركة الإنسانية ، جوان لويس فيفز لمجلس مدينة بروجز نشرة عنوانها : « إعانة الفقراء » . وقد لحظ انتشار الفقر وسط نمو الثروة ، وأنذر بأن الإفراط فى عدم المساواة فى الملكية قد يولد ثورة مدمرة ؛ وكتب يقول : « كما أنه من الخزى والعار على رب الأسرة فى بيته الهانئ أن يسمح لفرد فيـــه أن يعانى مهانة العرى أو الأسمال البالية ، فإنه كذلك ليس من اللائق بولاة الأمور فى المدينة أن يحتملوا حالة مواطنين يتضورون جوعاً وبؤساً »(٥٨) . ووافق فيفز على أن يجبر على العمل كل قادر عليه ، وألا يسمح لأحد بالتسول ، ولكن ما دام كثيرون غير قادرين على العمل فعلا ، فيجب أن يدبر لهم مأوى فى الملاجئ أو المستشفيات أو المدارس التى تنفق عليها البلدياب « على أن يقدم لهم الطعام والرعاية الطبية والتعليم الابتدائى مجاناً ، ويجب أن تتخذ تدابير خاصة للمتخلفين عقلياً . وجمع ايبر Ypres بين أفكار فيفز والسوابق الألمانية فى هذا المجال ، ونظم فى ١٥٢٥ صندوقاً جماعياً وحد أموال

الصدقات فى رصيد واحد ووكل توزيعها إلى رياسة واحدة . وطاب شارل الخامس (١٥٣١) نسخة من خطة ايبر . وأرسل هنرى الثامن توجيهاً مماثلا إلى أبرشيات انجلترا (١٥٣٦) . واحتفظت الكنيسة فى البلاد الكاثوليكية بإدارة أموال الصدقات .

وبقى الخلق السياسى مطبوعا بالمكيافللية : واعتبر نظام الجاسوسية أمراً مسلما به . وكان من المتوقع أن يبلغ جواسيس هنرى الثامن فى روما عن أخطر محادثات الفاتيكان وأكثرها سرية(٥٩) . وكانت الرشوة عملية تقليدية ، وتدفقت فى سخاء أكثر بعد تدفق الذهب من أمريكا . وتسابقت الحكومات على نقض المعاهدات . ونافست الأساطيل المسيحية والتركية بعضها بعضا فى أعمال القرصنة . وبعد تدهور نظام الفروسية انحطت أخلاقيات الحرب إلى ما يشبه الهمجية ونهبت أو أحرقت المدن التى كانت قد أخفقت فى مقاومة الحصار ، وذبح الجنود المستسلمون أو استعبدوا حتى تدفع عنهم الفدية . أما القوانين والمجاملات الدولية التى كانت سائدة فى حالة خضوع الملوك أحياناً لتحكيم البابوات ، فقد اختفت فى فوضى التوسع القومى والعداء الدينى . واعترف المسيحيون ببعض الضوابط الخلقية تجاه غير المسيحيين ، وبادلهم الأتراك نفس المعاملة . وأسر البرتغاليون زنوج أفريقية واستعبدوهم . ونهب الغزاة الأسبان المواطنين الأمريكيين واستعبدوهم وقتلوهم ، دون أن يخفوا عزمهم الأكيد على تحويل الدنيا الجديدة إلى المسيحية ، وكانت حياة الهنود الحمر فى أمريكا فى ظل الحكم الأسبانى مريرة تعيسة إلى حد انتحار الآلاف منهم(٦٠) ، بل حتى فى العالم المسيحى نفسه فى ذاك العصر كثرت حوادث الانتحار إلى درجة مروعة(٦١) . واغتفر بعض دعاة الحركة الإنسانية إهلاك النفس . ولكن الكنيسة حكمت بأنه يؤدى إلى الجحيم مباشرة ، ومن ثم يكون المنتحر كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إن كل ما فى الاصلاح الدينى ، ولو أنه فى نهاية الأمر أصلح من

الأخلاق فى أوربا — دمر الفضائل العلمانية . ولقد نعى ببركهيمر وهانز ساكس — وكلاهما متعاطف مع لوثر — أن فوضى السلوك العشوائى غير المنظم قد سادت بعد انهيار السلطة الدينية(٦٢) ؛ وكان لوثر كعادته ، صريحا جداً فى هذه النقطة :

كلما تقدمنا إلى الأمام ، ازداد العالم سوءاً . . . . فمن الواضح جداً كيف أن الناس أصبحوا نهمين قساة بذيئين وقحين شريرين أكثر بكثير مما كانوا عليه فى ظل البابوية(٦٣) ... فنحن الألمان اليوم موضع سخرية كل الأقوام والشعوب ووصمة عار لهم ، ونحن نعتبر قطيعا مخزيا كئيبا من الخنازير . . . . نحن نكذب ونسرق ، ونفرط فى الطعام والشراب ، وننغمس فى كل رذيلة(٦٤) . . . . وإن الشكوى عامة من أن شبان اليوم منحلون فوضويون تماما ، وأنهم لا يستبيحون لأنفسهم أن يزدادوا علما ومعرفة . ويروح نساء وتنبرج وبناتها ويجثن فى كل مكان عاريات ، وليس هناك من يعاقبهن أو يصحح أخطاءهن ، ساخرات من « كلمة الرب » هازئات بها(٦٥) .

ووصف واعظ لوثرى ، أندريا مسكولوس ، عصره (١٥٦٠) بأنه فاسق غير أخلاقى ، إذا قورن بالألمان فى القرن الخامس عشر(٦٦) . واتفق معه فى ذلك كثير من زعماء البروتستانت(٦٧) . وتأوه كلفن قائلا « إن المستقبل يفزعنى ، ولست أجرؤ على التفكير فيه . إن الهمجية سوف تجرفنا إلا إذا هبط الرب من السماء(٦٨) . وأنا لنسمع شيئاً من هذا القبيل عن اسكتلندة وإنجلترا(٦٩) . ولخص فرود ، وهو النصير المتحمس لهنرى الثامن ، الموضوع باعتدال وإنصاف ، فقال :

إن الحركة التى بدأها هنرى الثامن ، بالحكم عليها بنتائجها الحالية

(١٥٥٠) أسلمت البلاد آخر الأمر إلى مجرد مغامرين ، إن الناس استبدلوا بخرافة من أكبر مساوئها أنها فرضت ظلا من الاحترام والطاعة ، خرافة أخرى ، مزجت الطاعة بإيمان متسم بطابع المضاربة . وتحت هذا التأثير المميت ، بدأت تختفى ، لا أسمى فضائل التضحية بالنفس فحسب ، بل أبسط واجبات الاستقامة والأمانة والفضيلة والأخلاق . وأصيبت الحياة الخاصة بدنس بدا لخلاعة رجال الدين الكاثوليك أنه البراءة والطهر . . . . ومن بين الفئة الصالحة التى لم يمسها الدنس ، لا يزال من الممكن العثور على أفاضلهم فى جانب الإصلاح(٧٠) .

وقد لا يكون من اليسير أن تنسب هذا الانحطاط الخلقى فى ألمانيا وإنجلترا ، إلى فلك لوثر لقيود الجنس ، وازدرائه « للأعمال الصالحة » ، أو إلى المثل السيئ الذى ضربه هنرى الثامن بانغماسه فى المغامرات الجنسية وقسوته البالغة ، فقد ساد فسوق مشابه — ومن بعض النواحى أكثر انطلاقاً — فى إيطاليا البابوية فى ظل البابوات فى عصر النهضة ، وفى فرنسا الكاثوليكية تحت حكم فرانسوا الأول . وربما كان السبب الرئيسى فى انحلال الخلق فى أوربا الغربية هو نمو الثروة . وثمة سبب أصيل يدعم هذا ، هو تزعزع الإيمان ، لا فى المبادئ الكاثوليكية فحسب ، بل فى أساسيات وأصول العقيدة المسيحية كذلك . فقد رثى أندريا مسكولوس « أنه ليس هناك من يعبأ بالجنة أو الجحيم ، ولا يفكر أحد فى الله أو فى الشيطان »(٧١) . وينبغى فى مثل هذه التصريحات الصادرة عن الزعماء الدينيين ، أن تتجاوز عن مبالغات المصلحين اليائسين من ضآلة التحسينات التى أدخلتها إصلاحاتهم الدينية على الحياة الأخلاقية . وإذا كان لنا أن نصدق الوعاظ ، فإن الناس لم يكونوا أفضل بكثير فيما مضى ، وقد لا يكونون أفضل بكثير فى القرون التالية . فنى مقدورنا أن نتبين فى عصرنا هذا كل خطايا القرن السادس عشر وآثامه ؛

وأن نتبين خطايانا وآثامنا فى كل ما اقترفه الناس فى ذاك القرن ، طبقاً لما تيسر لديهم من وسائل وأساليب .

وإنا لنجد فى نفس الوقت أن الكاثوليكية والبروتستانتية كلتيهما ، كانتا قد أقامتا ودعمتا أساسين لانبعاث الروح المعنوية والأخلاقية : تهذيب سلوك رجال الإكليروس بالزواج أو بالزهد والتعفف ، والتوكيد على أن البيت هو الملاذ الأخير للإيمان والحشمة واللياقة . وقد يؤتى الإصلاح حقاً ثماره على مدى الأيام ، حتى إلى حد التطرف ، وقد يأتى اليوم حين يرجع الرجال والنساء بأبصارهم إلى الوراء ، فى حسد خفى ، إلى القرن السادس عشر ، حيث كان أسلافهم أشراراً وأحراراً إلى الحد الذى كانوا عليه يومذاك .

٤ — آداب السلوك

كان الحكم على الناس آنذاك ، مثل ما هو حادث اليوم ، بعاداتهم أكثر منه بأخلاقهم . لقد تجاوز الناس ، بقدر أكبر من طيب النفس ، عن الخطايا التى ارتكبت بأقل قدر من الوحشية : وأعظم قدر من الكياسة . وفى هذا المجال كانت إيطاليا هى الرائدة ، شأنها فى كل شىء باستثناء المدفعيـــة واللاهوت . وكان الناس شمال جبال الألب ، فيما عدا القشرة الرقيقة الخارجية فى سكان فرنسا وإنجلترا ، أفظاظاً غلاظاً ، إذا قورنوا بالإيطاليين ، بل كان هؤلاء يسمون الأولين متبربرين همجيين ؛ واتفق مع الإيطاليين فى هذا ، كثير من الفرنسيين الذين سحرت ألبابهم فتوحاتهم فى إيطاليا فى ميادين الحرب وآداب السلوك ، ولكن المتبربرين الهمجيين كانوا يتوقون إلى التمدن وارتقاء سلم الحضارة ؛ وحذا رجال البلاط وسيداته والشعراء والمفسدون فى الأرض من الفرنسيين حذو الإيطاليين ونهجوا نهجهم ؛ وسار الإنجليز الهوينا خلفهم ؛ وترجم كتاب كاستليونى « رجل البلاط » (١٥٢٨) إلى الفرنسية فى ١٥٣٧ ، وإلى الإنجليزية فى ١٥٦١ ، واختلفت الدوائر الأدبية

على تعريف الرجل المهذب : ولقيت كتيبات آداب السلوك رواجاً كبيراً . ولقد ألف إرزم واحداً منها : وأصبح الحديث فناً فى فرنسا ، كما كان فيما بعد فى حانة مرميد فى لندن (كان يجتمع فيها بن جونسون وشكسبير وغيرهما من الكتاب : فى عصر اليزابيث) : وعبرت مباريات الأجوبة البارعة السريعة جبال الألب من إيطاليا حول الوقت الذى انتقل فيه كذلك فن المبارزة بالسيف . وكان الحديث أكثر صقلا وتهذيباً فى فرنسا عنه فى ألمانيا . وكان الألمان يسحقون الرجل بالفكاهة ، أما الفرنسيون فكانوا يخزونه فى ذكاء وفطنة . وكانت حرية الكلام وسيطاً أساسياً فى ذاك العصر .

ومنذ كان تحسين المظهر الخارجى أيسر من تهذيب النفس ، فإن الطبقات الصاعدة فى المدنيات الناشئة فى الشمال أولت ملابسها قسطاً أكبر من العناية . وارتدى عامة الناس ملابس بسيطة للغاية — كما نرى فى جماهير بروجل (مصور فلمنكى) : قبعات على شكل الفنجان ، وبلوزات فضفاضة ذوات أكمام منتفخة ، وسراويل (بنطلونات) ضيقة تصل إلى الأحذية المريحة ، ويتركز هذا التشكيل البشع على حقيبة قبيحة ، مزدانة بزخارف براقة ، تتدلى أمام انفراج ساق الرجل . أما الرجال الموسرون فى ألمانيا فقد غلفوا أجسامهم الجبارة فى طيات كثيرة فضفاضة من القماش ، تعلوها قبعات عريضة تبدو فوق الرأس وكأنها فطيرة ذات مصاطب أو طبقات . أما نساء ألمانيا ، فالظاهر أنه كان محرماً عليهن أن يلبسن إلا زى مديرات النزل أو الطباخات . وفى إنجلترا أيضاً كانت ملابس الرجال أجمل وأكثر بهجة من ملابس النساء ، حتى جاءت الملكة اليزابيث فميزتهم بما ارتدته من أزياء لا يحصيها العد . وجرى هنرى الثامن شوطاً بعيداً فى الإسراف فى ملابسه ، وكان يجملها ويزينها بالألوان والحلى والأنسجة الثمينة . ويقول هوللنشد إن دوق بكنجهام كان يرتدى — فى زواج الأمير آرثر من كاترين أوف أراجون — عباءة

من شـــغل الإبرة ، مغطاة بفراء السمور ، قدرت بنحو ١٥٠٠ جنيه (١٥٠٫٠٠٠ دولار؟) ، وحرمت القوانين على أى رجل دون رتبة فارس ، أن يقلد فخامة الملابس التى يرتديها من هم أعلى منه مكانة . وغطت الإنجليزيات أجسامهن بالملابس الضيقة من العنق إلى أخمص القدم ، ذات أكمام تصل إلى المعصم ، مع زركشة بالفراء على حروف الثياب ، وأحزمة مثبتة بحلى معدنية ، وقلادة أو مسبحة ، وكانت النساء بصفة عامة تلبس من المجوهرات أقل مما يلبس الرجال :

وفى عهد فرانسوا الأول الذى كان يقدر الشيء حق قدره ، فتحت النســـاء الفرنسيات الجزء الأعلى من ثيابهن وكشفن عن صدورهن المنتفخة ، وشققن أرديتهن إلى آخر فقرة من ظهورهن . وإذا لم ينتفخ الصدر الطبيعى إلى حد كاف ، وضعن عليه مشداً يجعله عاليا منتفخا(٧٢) ، وضيقت الملابس وأحكمت فيما تحت الثديين ، وضغطت على الخصر(٧٣) ، مع أكمام منتفخة ، وانتشرت من التنورة أسلاك من الخلف وعلى الحافة . واضطرتهن الأحذية العالية الكعوب إلى المشية المتبخترة الرشيقة . وكان يباح للمرأة ذات المكانة العالية — وليس لغيرها — أن يكون لثوبها ذيل ، وكلما ارتفع قدرها زاد طول الذيل . وقد يطول الذيل ، إذا سمحت مرتبة الشرف ، إلى سبع ياردات ، وكان يمشى وراء السيدة وصيفة أو خادم يمسك به ويرفعه عن الأرض ، وفى طراز آخر الأزياء قد تغطى السيدة رقبتها بطوق أحكم شده بأسلاك ، وعذب الرجال أنفسهم بشيء غريب مماثل فى المناسبات الرسمية ، وفى ١٥٣٥ لحظ سرفيتس « أنه لنساء أسبانيا عادة قد يظن فى فرنسا أنها همجية ، تلك هى أنهن كن يثقبن آذانهن ويعلقن فيها أقراطا ذهبية غالباً ما تكون مرصعة بالأحجار الكريمة »(٧٤) . وما جاءت سنة ١٥٥٠ حتى كانت نساء فرنسا تلبس الأقراط ، بل حتى الرجال كذلك(٧٥) . واستمرت الجواهر والحلى

محتفظة بسلطانها منذ زمن سحيق . وارتدى الرجال فى فرنسا قمصانا من الحرير مع صدارات من القطيفة ، وحشوا أكتافهم ، وكسوا أرجلهم بسراويل قصيرة ضيقة ، وحافظوا على رجولتهم بحقيبة منضدة بالأشرطة أو الجواهر أحيانا . وعلى النقيض من عادات القرن الخامس عشر قصروا شعر الرأس وأرخوا لحاهم . أما النساء فقد احتفظن بشعرهن فى تصفيفات متنوعة لا تشجع على وصفها . فكان مضفراً معقوصاً ملفوفاً فى شباك ، مليئاً بالضفائر العارية ، مزداناً بالأزهار ، براقاً بالجواهر ، مضمخا بالزيوت العطرية ، مصبوغا ليتمشى مع الأناقة وأسلوب العصر ، ومرفوعاً على شكل أبراج أو أهرام فوق الرأس ؛ وكان من غير الممكن أن تستغنى السيدة الأنيقة عن الحلاق فى هذا الزمان ، فإن تقدم العمر بدا آنذاك قدراً محتوما أسوأ من الموت .

وإلى أى حد كانت الأجسام نظيفة تحت هذه اللفائف والزخارف ؟ لقد تحدث كتاب من القرن السادس عشر عنوانه « مقدمة للسيدات الشابات » عن « نساء لم يعنين قط بنظافة أجسامهن ، اللهم إلا الأجزاء التى يمكن أن تقع عليها العين . . . أما ماتحت قمصانهن الكتانية فقد بقى قذراً »(٧٦) . وثمة مثل ساخر يقول بأن العاهرات هن الوحيدات اللائى غسلن أكثر من وجوههن وأيديهن(٧٧) . وربما ازدادت النظافة بازدياد الفسق والفجور . فقد كشفت النساء من أجسامهن عن أجزاء أكثر من ذى قبل ، وجعلنها نهباً لأنظار الكثير من الناس . ومن ثم اتسع نطاق النظافة ؛ وأصبحت آنذاك كثرة الاستحمام ، مع تفضيل الماء المعطر ، وخاصة فى فرنسا ، جزءاً من العادات الطيبة ؛ وقل عدد الحمامات العامة بتضاعف عدد الحمامات الخاصة ، ولم تكن هذه عادة مزودة بالمياه الجارية ، بل اعتمد فيها على السلطانية (الكوز) والحوض . وظلت شائعـــة مستحبة فى القرن

السادس عشر ، حمامات البخار التى كانت قد جاءت إلى أوربا الغربية بعودة الصليبيين إليها فى القرن الثالث عشر .

وفى البلاد البروتستانتية حل البيت تقريبا محل الكنيسة ، كمركز للعبادة والصلوات . وأدى الوالد مهمة الكاهن فى الصلوات اليومية وتلاوة الإنجيل والترانيم ، وعلمت الأم أبناءها مبادئ العقيدة الدينية . وفى الطبقات المتوسطة سارت الرفاهية جنبا إلى جنب مع التقوى والتدين . فهذا هو العصر الذى تطورت فيه المنضدة ذات الحوامل والألواح الخشبية الملتحمة بعضها ببعض إلى وحدة ذات أرجل متينة ، وتطور المقعد الخشبى والوسائد إلى كرسى مريح « منجد » وسرير منقوش ذى أربعة قوائم ، فوقه ظلة — وأصبح كل أولئك رمزا للاستقرار الأدبى واليسار المالى . وصنع الأثاث والأطباق والمدافئ وأدوات المطبخ لتحتمل بل وتحتفظ ببريقها لعدة أجيال . وحلت الأطباق المعدنية محل الأطباق الخشبية ، كما حلت الملاعق المصنوعة من القصدير أو الفضة محل تلك المصنوعة من الخشب . وكانت البيوت واسعة فسيحة لأن الأسرات كانت كبيرة ، لأن النساء كن يلدن فى كل عام تقريبا ، ولكن دون جدوى ، لأن نسبة الوفيات بين الأطفال كانت عالية : وكان جون كولت أكبر اثنين وعشرين طفلا . وحين بلغ سن الثانية والثلاثين ، كان كل إخوته قد ماتوا : وكان لأنطون كوبرجر صاحب المطبعة فى نورمبرج — خمسة وعشرون طفلا ، وقد عمر هو بعد موت اثنى عشر منهم ، وكان ديرر واحداً من ثمانية عشر طفلا ، يبدو أن ثلاثة منهم فقط بلغوا سن الرشد(٧٨) . واستكمالا للأسرة كانت هناك حيوانات منزلية مدللة كثيرة قدر كثرة عدد الأولاد تقريبا . وكانت الببغاوات قد جاءت من جزر الهند الغربية . وكانت القردة التى أحضرت من الهند أليفة أثيرة فى البيت(٧٩) . وكان هناك كثير من الكتب التى تعلم النساء والأطفال طرق العناية بالكلاب والطيور وتربيتها .

وكانت وجبات الطعام هائلة . ولم تكن الخضروات مستساغة ، بل كان الناس يزدرونها ، ثم أقبلوا عليها شيئاً فشيئاً . وشاع آنذاك أكل الكرنب والجزر والخس والراوند والبطاطس والفول والفريز . وكانت الأكلة الرئيسية فى الساعة الحادية عشرة صباحاً وتأخر العشاء إلى السابعة مساء ، وكلما سمت الطبقة تأخرت ساعة تناول العشاء . وكانت الجعة والنبيذ هما المشروبان الرئيسيان فى كل وجبات الطعام حتى الإفطار . وكان من طرق توماس مور إلى الشهرة أنه تناول الماء بديلا عنهما ، وحوالى ١٥٥٠ استحضر الأسبان الشكولاته (الكاكاو) من المكسيك ، ولم يكن البن قد تقاطر بعد من بلاد العرب إلى أوربا الغربية . وفى ١٥١٢ حددت أسرة دوق نورثمبرلاند ربع جالون من الجعة لكل فرد فيها فى كل وجبة طعام حتى للأولاد فى سن الثامنة . وكان استهلاك الجعة فى كوفنترى فى القرن السادس عشر ربع جالون يومياً لكل رجل وامرأة وولد(٨٠) . وقد اشتهرت مصانع الجعة فى ميونيخ منذ القرن الرابع عشر(٨١) . وكان شرب الخمر شائعاً فى انجلترا حتى جاءت « مارى اللعينة » (مارى تيودور ١٥١٦ — ١٥٥٨) فاستهجنته . ولكنه ظل مألوفاً فى ألمانيا ، وتناول الفرنسيون الخمر فى اتزان أكثر ، لأن الجو عندهم لم يكن بارداً إلى هذا الحد .

وعلى الرغم من الفقر والظلم ، استمر الناس يتمتعون بكثير من نعم الحياة ، وحتى الفقراء أنفسهم كان لهم حدائق ، وأصبحت زهرة التيوليب هواية وطنية فى هولندة ، وكان قد أحضرها لأول مرة حوالى ١٥٥٠ بوسبك سفير الإمبراطور فى القسطنطينية . وكانت البيوت الريفية نمطاً سارآ فى انجلترا وفرنسا . وظل القرويون يحتفلون بأعيادهم الموسمية فى عيد الربيع (أول مايو) ، عيد الحصاد ، عيد كل القديسين ، وغيرها كثير ، واحتفل الملوك بعيد الربيع وتوجوا أنفسهم بأكاليل

الزهور ، وكان فيما يتسلى به سراة القوم أحياناً مهرجانات مثيرة للفقراء ، من ذلك عندما دخل هنرى الثامن ليون فى احتفال مهيب فى ١٥٤٨ ، وربما كان جمهور الشعب يشهد على مسافة معقولة ، اللوردات فى مباريات السيوف — وقد بطلت هذه الرياضة بعد موت هنرى الثانى : وأصبحت المواكب الدينية أكثر وثنية ، عند اقتراب عهد هنرى الثامن من عصر إليزابث ، وفى القارة أباحت الأخلاقيات المتساهلة للنساء العرايا أن يمثلن بعض الشخصيات التاريخية أو الأسطورية ، واعترف ديرر بأنه هو نفسه افتتن بمثل هذا العرض فى أنتورب ١٥٢١(٨٢) .

وكانت هناك الألعاب ؛ وقد أفرد رابليه فصلا لتسجيلها ، فعلية أو خيالية . وصور بروجل نحو مائة منها فى إحدى لوحاته . وكان فى تعذيب الدببة ومصارعة الثيران ومصارعة الديكة تسلية للجمهور ، وروضت كرة القدم ولعبة الكرات الخشبية والملاكمة والمصارعة شباب العامة ، وطردت عنهم الأرواح الشريرة ، وكان فى باريس وحدها ، للطبقة الأرستقراطية ، فيها ١٥٠٢ من الملاعب للتنس ، فى القرن السادس عشر(٨٣) . ومارست كل الطبقات الصيد ، ولعبت الميسر ولعبت بعض السيدات النرد ؛ ولعب بعض الأساقفة الورق بنقود(٨٤) . وتجول الممثلون المهرجون والبهلوانات واللاعبون فى الريف ، وعرضوا أفانينهم وألعابهم على اللوردات نظير جعل يتقاضونه . وفى داخل البيوت لعب الناس الورق والشطرنج والنرد وعشرات من الألعاب غيرها ، وكان الرقص أحب أنواع التسلية ؛ ويقول رابليه « وذهب الجميع بعد العشاء إلى الأيكة ، الممتلئة بالصفصاف ، يلاحق بعضهم بعضاً ، وهناك على العشب الأخضر ، على الأنغام الشجية من المزمار وموسيقى القرب رقص الجميع برشاقة ، فكانت رياضة لطيفة سماوية يلذ للإنسان مشاهدتها(٨٥) ؛ وفى يوم عيد الربيع فى إنجلترا كان أهل القرية يتجمعون حول « عمود مايو »

المزين بالأزهار والأشرطة بشكل بهيج ، ورقصوا رقصاتهم الساذجة الممثلة حيوية ، ويبدو أنهم بعد ذلك راحوا يقبلون ويعانقون بعضهم بعضاً مما يذكر بعيد فلورا إلهة الزهور عند الرومان . وكانت ألعاب عيد مايو فى عهد هنرى الثامن تشمل « الرقص العربى » الذى كان قد جاء من عرب أسبانيا عن طريق الرقصة الإسبانية « فندنجو » بالصنوج . ورقص الطلبة فى أكسفورد وكمبردج فى مرج بالغ الصخب ، إلى درجة أنه كان لا بد من أن يحرم وليم ويكهام هذا العبث بالقرب من تماثيل الكنيسة ؛ وأقر لوثر الرقص ، واستساغ بنوع خاص « الرقصة التربيعية » مع الانحناءات الودية والعناق والتمايل الرقيق ، بين المشتركين فى الحلبة »(٨٦) ورقص ملائكتون الوقور . وفى ليبزج فى القرن السادس عشر أقام الآباء فى المدينة بانتظام حفلات راقصة حتى يتمكن الطلبة من التعرف على « أشرف وأجمل بنات ذوى المكانة وأعضاء السناتو والمواطنين »(٨٧) . وكثيراً ما ترأس شارل السادس حفلة الرقص فى البلاط الفرنسى . واستقدمت كاترين دى مديتشى إلى فرنسا راقصات إيطاليات ، وهناك فى أخريات أيام الملكة الأم التعسة ظهرت رقصات أرستقراطية جديدة . وقال جان تابورو ، فى كتاب من أقدم الكتب عن فن من أقدم الفنون : « إن الناس كانوا يمارسون الرقص ليروا هل يتمتع الحبيبان بصحة جيدة ، وهل يناسب كل منهما الآخر ، وفى نهاية الرقص كان يسمح للشاب أن يقبل خطيبته ليستوثق من أن رائحة أنفاسها طيبة . . . . وبهذه الطريقة يصبح الرقص ضرورياً لبساس المجتمع سياسة حسنة(٨٨) ؛ وتطورت الموسيقى بفضل مصاحبة الرقص ، من الأشكال الصوتية وجوقة المنشدين إلى استخدام الآلات وتأليف الألحان ، مما جعلها فناً بارزاً ذا شأن فى عصرنا :